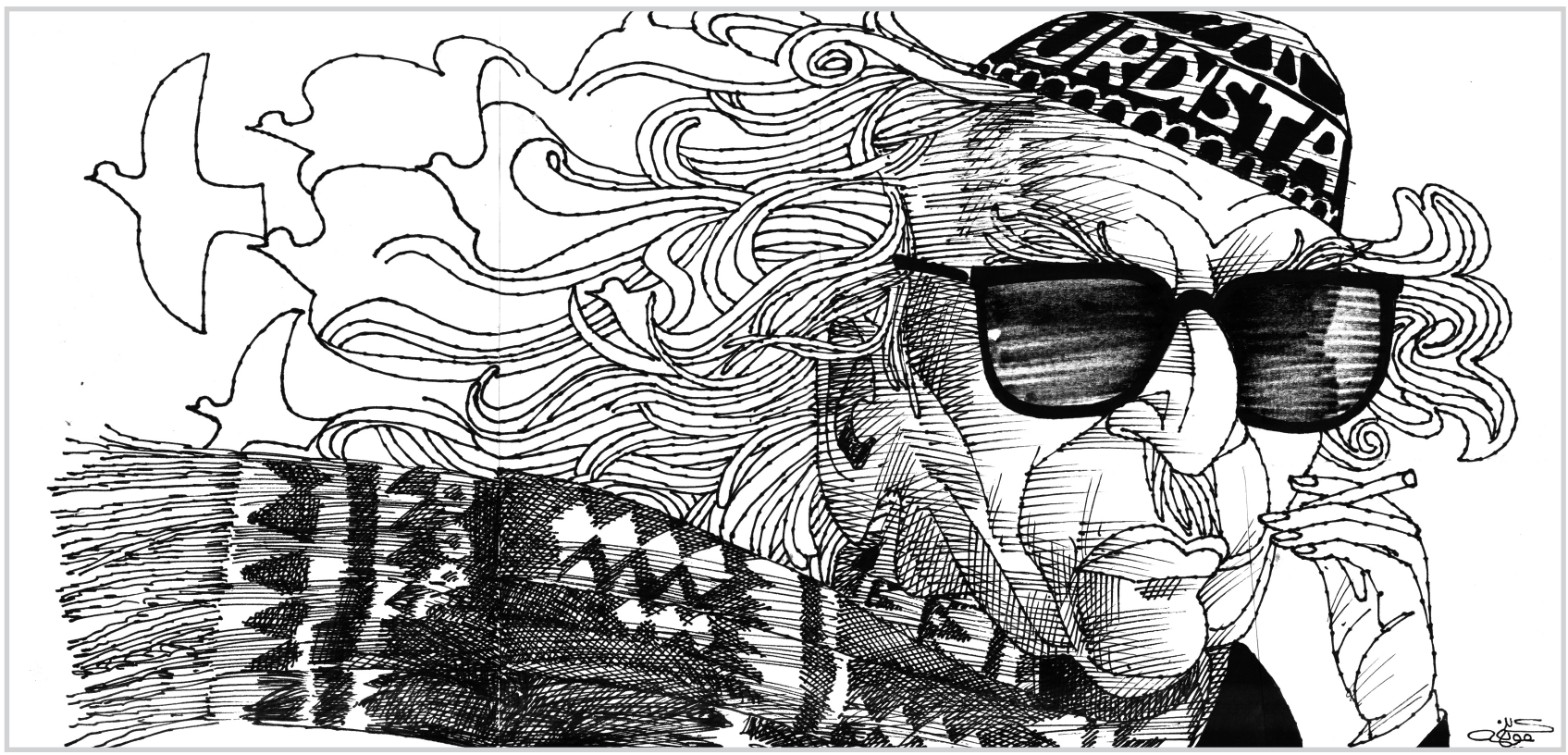

في أربعينية الجواهري الكبير .. خواطر متناثرة

(٢-٢)

كاظم حبيب

تمر في السابع والعشرين من هذا الشهر الذكرى العاشرة لوفاة الشاعر العملاق الجواهري ، فإلى ذكراه الخالدة هذه المقالة المتواضعة.

أذكر هنا طريفة حصلت لنا مع الجواهري.
أثناء وجوده في الجزائر العاصمة دعوته وكفاح والأعرجي لتناول الغداء في احد المطاعم الواقعة على شاطئ البحر في الجزائر. وعندما جئنا لأخذه من بيت صديقه الأعرجي وجدنا الجواهري في غضب شديد على صاحبه مهموما مع نفسه ومزمجرا بشعر فيه الكثير من الحب والحسرة والغضب على حاله بعد أن كان قد بدأ يتذوق طعم الحب ثم انقطع فجأة، وفيه الكثير من الشتم المقذع بحق صاحبه وصديقه الوفي الذي حرمه من مواصلة التمتع بحب صاف ورقيق مع شابة سمراء، هيفاء رائعة الجمال من الجزائر العاصمة. كان لتوه قد مر بتجربة حب حركت فيه مشاعر كانت مكبوتة ففجرت كل عواطفه وقريحته المعطاءة في شعر قرأنا شبيها لها في قصيدته الخالدة آنيتا ولكن على نهج آخر. ولكن ذلك الحب والحلم الجميل لم يستمر طويلا ولم ينته إلى ما كان يتمناه، انقطع حبل الوصل في منتصف الطريق، إذ عندما نضجت الثمرة وحان قطافها سرقت منه، اقتلعت من بين أسنانه، هربت من الدار كما عبر لنا عنها. كان الغضب يتآكل الجواهري من الداخل وشرر الحب والغضب يتطاير من عينيه.
قال الجواهري بعصبية: تدري أبو سامر هذا "النذل، هذا الأعرجي " اشسوه بيه، وصلت للزردوم وجره اللعين بالچلابتين... (أتدري ماذا فعل بي هذا اللعين، وصلت إلى البلعوم ثم سحبها بالكماشة أو الملقط)، وكأني به كان يعيد ما قالته الفنانة المبدعة صباح: وصلتينه النص البير وقطعت الحبل فينا...وبينك وبينك..
أنشدنا الجواهري حزينا ما كتبه من شعر في تلك الليلة الليلاء عندما انقطع حبل الوصل في منتصف الطريق وبالرغم منه. لقد عاش الجواهري رقة الحب ووقسوة الحرمان منه بشكل لم يعرفه من قبل وفي آن واحد. وكان ذلك سببا في كتابة ثلاث مقطوعات بديعة حقا عبر فيها عن معاناته وحسرته وغضبه. لقد كان الجواهري الرجل عاشقا ومفتونا بالمرأة دوماً. كان الجواهري ما يزال يحتسي البيرة ويدخن السيجارة تلو السيجارة ويشتم صاحبه المسكين، ولكن بمحبة وحنان، الذي حرمه من حب جميل. رأفنا بحال الصديق الطيب والودود الدكتور الأعرجي. خرجنا معا لتناول طعام الغداء وكنا ثلاثة الجواهري وابنه كفاح وأنا، ولم يخرج معنا الأعرجي خشية إفساد الجلسة بسبب غضب الجواهري وشتائمه التي لم تنقطع. في الشارع الممتد على طول الساحل الجزائري باتجاه حي المناضلة جميلة بو حيرد قال الجواهري:
"تدري أبو سامر أنا جئت إلى هنا بدعوة ووعد في التمتع بمباهج الحياة من هذا الصديق محمد ... ولكن لا شيء من ذلك أبدا.. أنا ضجرت حقا، سأغادر الجزائر غدا قطعاً، سأعود إلى براغ الجميلة إذ كل ما فيها جميل..". فهمنا الوتر الذي كان يضرب عليه الجواهري ... رجوت الجواهري أن يبقى معنا بعض الوقت إذ أن الأخوة في الجزائر، وخاصة من رفاق حزب الطليعة الجزائري، يريدون اللقاء به والتمتع بشعره وحلو حديثه ويحاولون ترتيب لقاء له مع قادة الدولة في الجزائر حينذاك. فهو بالنسبة لهم لا أحلى منه شعرا ولا أبدع منه أنسانا.
وفي الطريق إلى المطعم قال د. كفاح وعلى حين غرة وبين الجد والهزل: "تدري بوية أمي لما كانت عدنه هنا بالجزائر كانت هي تكول على طول انا ضايجة". وكان كفاح ينظر لي من خلال مرآة السيارة غامزا بعينه مستفزا والده منتظرا غضبه ومنتقما لحبيبة الجواهري ورفيقة عمره أمونة.
التفت الجواهري نحوي وكانت بسمة عريضة قد ارتسمت على محياه وقال: "اسمع أبو سامر، الفطير شيكول...". ضحكنا معا ومرت المزحة بسلام!
في شقتي الصغيرة في الجزائر اجتمعنا معا احتفاء بالجواهري: كان معنا الأخوة عبد الحميد بن زين والهاشمي بونجار واحمد الماحي وبو علام خلفة، من قادة حزب الطليعة الجزائري، والدكتور خالد السلام والدكتور غانم حمدون والأستاذ عزيز سباهي والدكتور حسام صالح جبر والدكتور كفاح الجواهري. في تلك الليلة أنشدنا الجواهري الكثير من شعره، استمعنا لأحاديثه الشيقة حتى وقت متأخر من صبيحة اليوم الثاني. وفي تلك الليلة أتى الجواهري على قراعة ويسكي بلاك ليبل بالكامل، كما عبر عنها الأصدقاء الجزائريون، ونزل من الطابق الخامس إلى الشارع وكأنه لم يحتس الويسكي أبدا.
كانت كل من براغ ودمشق الشام من المحطات الرئيسية الطويلة في حياة الجواهري استغرقتا معا ثلث عمر الجواهري الذي دام قرنا كاملا من الزمان وفق حسابات البعض وأقل من ذلك بقليل وفق حسابات البعض الآخر. صبايا وحسان براغ خلبن لبه واطلقن فحولته الشعرية وانسانيته الفائقة... كان عندما يسأل ما تفعل أيها الجواهري مع الحسناوات من الصبايا اللواتي يأتين إلى بيتك .. . كان يرد عليهم باعتزاز ومفاخرة: شأني معهن شأن كل فحل، والله أعلم!
في جلسة لطيفة وطريفة مع الجواهري جئنا على ذكر الحسناوات في براغ فقال الجواهري متذكرا ومفاخرا: قلت يوما لأبني فلاح، ولك شمالك ما تتونس ولا تطلع ويه هالحلوات الجيكيات ولك يسوون الدنيا كلها.. . أجابني الملعون قائلا: بوية انت تعرف احسن مني النار ما تخلف غير الرماد، فأنت النار وأنا رمادك ... كان الجواهري نارا ضارمة حقاً مستعرة دوما في حبه للنساء.
التقى الجواهري مرة مع النقابي المعروف أرا خاجادور (أبو طارق) في براغ. وكان أبو طارق حينذاك ممثلا للحزب الشيوعي العراقي في مجلة قضايا السلم والأشتراكية (الوقت). كان الجواهري قد سلمه قبل ذاك قصيدة له ينوي تقديمها في القاهرة لدعوة وصلته من المسؤولين المصريين فيها لإقامة حفل تأبيني وخطابي بمناسبة ذكرى وفاة جمال عبد الناصر. فسأله ما رأي الجماعة بالأمر. رد عليه أبو طارق برطانته المعروفة والمحببة .. أي أبو فرات خوش قصيدة .. زينة.. رد عليه الجواهري بغضب ممزوج بسخريته المعهودة مقلدا رطانة أبو طارق مع ضحكة باغتته: ولك بول انه جاي اسألك شلونه القصيدة حتى اتكلي زينه لو موزينة، لو آني أريد أسمع رأي الجماعة، (وكان يقصد رأي الحزب الشيوعي العراقي) بالنسبة للسفر إلى القاهرة في مثل تلك الأجواء السياسية المتوترة والمعقدة، هل الوقت مناسب للزيارة أم لا حسب تقديرهم... احمر وجه صاحبنا خجلا وتلعثم وراح يعتذر، فتداركه الجواهري بمزحة لبقة وجميلة، إذ كان لأبي طارق ود خاص عند الجواهري.
كان الجواهري الكبير يكن احتراما كبيرا وخاصا لكل المناضلين في العراق وغناهم في شعره كثيرا. وكان يعبر عن ذلك الاحترام والود في احاديثه في مناسبات كثيرة. وكانت له علاقات حميمة مع جمهرة كبيرة من السياسيين العراقيين، وخاصة مع الشيوعيين العراقيين، ويحترم الحزب الشيوعي العراقي ويقدر تضحياته الكبيرة. إلا أن الحزب، وهذا هو الإيجابي والبديع في الجواهري، لم يفلت من انتقاداته النابتة والصادقة، التي كان الحزب الشيوعي يأخذها بعين الجد.
كانت للجواهري مواقفه السياسية المستقلة ورؤيته الخاصة بشأن مختلف الأحداث في العراق والعالم العربي وفي المنطقة عموما. وكثيرا ما كانت شخصيات سياسية معروفة تستشيره الرأي وتسعى إلى معرفة تصوراته في تطور تلك الأحداث. لقد كان الجواهري يمارس النقد الرصين والصارم، وأحيانا يوجه النقد اللاذع إزاء فصائل الحركة الوطنية العراقية المختلفة بسبب الأخطاء التي ترتكبها أو التمزق الذي تعيشه والذي يطيل ليل الاستبداد الدموي في العراق، ولكنه كان نقدا بناء ومسؤولاً باستمرار.
وقف الجواهري في مؤتمر المعارضة العراقية في بيروت في العام ١٩٩١ غاضبا ومزمجرا ومطالبا بانسحاب القوات الأمريكية المحتلة من الأراضي العراقية معتبرا وجودها تدنيسا لأرض الرافدين. وكان هذا تحديا لمجموعات كبيرة من المشاركين في المؤتمر. ولم يشاركه في موقفه الواضح والسليم سوى ما جاء في خطاب السكرتير الأول للحزب الشيوعي العراقي الرفيق عزيز محمد والفنان المبدع والصديق العزيز محمود صبري بهذا الصدد، في حين كان التيار العام بخلاف ذلك، بل قد وصل الأمر بالبعض منهم أن دعا إلى استمرار بقاء القوات الأمريكية في العراق وان تأخذ هذه القوات على عاتقها ما ينبغي أن تقوم به المعارضة العراقية، أي أن تقوم بإسقاط النظام العراقي بدلا عنها. وفي أعقاب هذا المؤتمر تبلورت الطبخة الأمريكية لتشكيل المؤتمر الوطني العراقي الذي ولد في فينا، والوفاق الوطني الذي ولد في عمان لتفويت الفرصة على اتفاقات أو تحالفات عراقية خالصة وجادة. وكان الجواهري يلاحظ ذلك بحسه الوطني السليم ويرفضه ويبتعد عنه.
كان الجواهري، ومعه كوكبة لامعة من الشخصيات الاجتماعية والسياسية الوطنية العراقية البارزة، عضوا نشطا في حركة السلام العراقية التي تأسست في أوائل الخمسينات، كما كان ولسنوات طويلة عضوا في مجلس السلم العالمي، إضافة إلى كونه كان رئيساً لاتحاد الأدباء العرقيين فترة غير قصيرة.
كان الجواهري يمتلك حسا سياسيا ثوريا متميزا. كان يتحسس مبكرا الإرهاصات الثورية في حركة الشعب العراقي. والكثير من السياسيين العراقيين كانوا يتهيأون لاستقبال أحداث سياسية عاصفة في العراق، عندما كان الجواهري ينطلق هادرا بقصائد غاضبة وشامخة معبرا عن حالة الشعب وحاجاته. ولكن حركة الشعب، وانتفاضاته، وتضحياته، ورفضه للظلم والطغيان هي التي كانت تحرك الجواهري وتطلق موهبته وقريحته الشعرية الفريدة.
التقيت بالجواهري من جديد في براغ في سنوات ١٩٨٥-١٩٨٩ عندما كنت ممثلا للحزب الشيوعي العراقي في هيئة تحرير ومجلس تحرير مجلة قضايا السلم والاشتراكية مع انقطاع أكثر من عام قضيته في حركة الانتصار مجدداً في إقليم كُردستان العراق. وكانت لقاءاتنا كثيرة وشيقة، وكان الشعر والأحاديث الجميلة وأوضاع العراق السياسية محورها الأساسي. كان مهموما بسبب أوضاع المعارضة العراقية وتدهور الأوضاع في العراق واستمرار الحرب مع إيران حينذاك.
في براغ الجميلة الحالمة كان الجواهري يعيش بعض أحلى سنوات عمره. كنا نلتقي أحيانا في بيت الفقيد أبو سرود، عادل المصري ومعه الكاتب والصحفي الدكتور مجيد الراضي، وأحيانا أخرى في بيته أو في مقهى ومطعم في براندوف، وكان الصديق العزيز وابن أخت الجواهري أبو لمى، المهندس رواء الجصاني معنا دائما. وكان الجواهري في كل مرة نلتقي بها يكون بطل السهرة ومحدثها اللبق وصاحب المعشر الجميل وشاعرها الدائم. لقد كان الجواهري مكتبة تاريخية جوالة، يحمل في ذاكرته الكومبيوترية تاريخ العراق وأحلى وأروع أشعار الشعراء العرب، وهو الذي ساعد على وضعه كتاب عيون الشعر العربي في الشام. كان الجلوس أليه والاستماع إلى شعره المتنوع وأحاديثه الطرية والشفافة لا يمل. كانت له ذاكرة ليست تاريخية وشعرية فحسب، بل ومنظمة وواسعة جدا، لا ينسى حتى أصغر الأحداث. من المؤسف انه لم يحظ من المسؤولين في براغ بالعناية الكافية باعتباره شاعر العرب الأكبر. لقد امتلك شقة صغيرة متواضعة في احد أحياء براغ في حين كان يسعى إلى الحصول على شقة على نهر براغ المولداو (فيتافا) الشهير. ولم يفهم الأصدقاء التشيك أهمية ذلك لمثل هذا الشاعر صاحب الحس المرهف الذي افتقد العيش بجوار وعلى ضفاف نهري دجلة والفرات. وعندما سعينا لتحقيق هذه الرغبة واجهتنا مصاعب غير قليلة ذللت بعد عذاب شديد وبجهود مضافة من الجواهري ذاته.
كان بيت الجواهري في براغ محطة لاستقبال الكثير من الضيوف العراقيين والعرب الذين يقدمون ويسعون إلى حج بيته والتمتع بصحبته والاستماع إلى بعض شعره وأحاديثه.
كان الجواهري إنسانا بالغ الحساسية، يتأثر بأصغر الأحداث ويتفاعل معها، يتكدر مزاجه بسرعة، فهو حاد ومتقلب المزاج وصعب المراس. كان يضحك كالطفل البريء مرة ويغضب عابسا، وعند ذاك يصعب تحمله. وكانت عائلته هي التي تعاني من مزاجيته. لم يكن سهلا بأي حال من الأحوال، بل كان إنسانا صعبا وأحيانا بالغ التعقيد، وإذا غضب لا يرحم ولكن عبر الكلمات. في داخل الجواهري كانت هناك ثورة تتفاعل باستمرار وحياة مضطربة وفوضى غريبة فيها شيء من البوهيمية والحيوية المحببتين. الاعتزاز بكرامته، الثقة بنفسه، الاعتزاز بتاريخه ومواقفه العامة، الإدراك العميق بقوة شعره، القلق الدائم، الرغبة في العيش المريح والخوف منه في آن. كان الجواهري كريم النفس رغم حبه الشديد للمال ورغبته في تحقيق المزيد منه في آن. أبرز ما في الجواهري التزامه الكامل بقضية الشعب، فهي قضيته، قضية الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.
لقد كان الجواهري عميق الإدراك بأهمية الديمقراطية وحقوق الإنسان وشديد الكره للعنصرية والتمييز العنصري والشوفينية والطائفية والفاشية والتمييز ضد المرأة. لقد وقف إلى جانب قضية الشعب الكردي ودافع عنها وهاجم بعنف شديد مضطهدي هذا الشعب. ولم يسكت عن القادة القوميين الكرد، وبسبب صداقته لهم أيضا، عن تقريعهم قولا وشعرا عندما سلكوا سبيل القتال في ما بينهم وداسوا على الديمقراطية وحقوق الإنسان في كردستان.
وهو القائل في قصيدة بعنوان "كردستان يا موطن الأبطال في العام ١٩٦٤ فيما يلي بعض ابياتها:

قلبي لكردستان يهدى والفم
ولقد يجود بأصغريه المعدم
ودمي وأن لم يبق في جسمي دماً
غرثى جراح من دمائي تطعم
سلم على الجبل الأشم وأهله
وأنت تعرف عن بنيه من هم
يا موطن الأبطال والدنيا بها
نصف وأن خليت تجور وتظلم

يجد القارئ في شعر الجواهري نفحات الحب الصوفية الصريحة، والعقلانية المتميزة والقرمطية الثائرة الطامحة للعدالة والرافضة للجور والاستبداد والساعية نحو التغيير، كان الجواهري اشتراكي النزعة، مادي وجدلي المنهج، غير متدين، نجد في شعره تاريخ وتراث وتقاليد شعب على مدى الأجيال. شعره ينبض بالحياة وتناقضاتها وجدليتها، يجسد في شعره حركتها وفعلها ويتحرك مع حصيلتها الصاعدة المتدفقة صوب التغيير. الجواهري بستان شعر فسيح، حدائق غناء زاهرة.. أجواء متنوعة، ألوان بديعة وحياة زاخرة بالحركة، وجسارة فائقة ومتقدة دوما لا تخلو من خوف، وقلق وشك. شاعر ناعم، رقيق وأنيس، وثائر متفتح ومتمرد في آن.
لقد غنى الجواهري لنفسه ولنا في غريب الدار :
بدأ الجواهري بكتابة مذكراته في براغ التي صدر منها حتى الآن جزءان. نصبت أمامة كاميرا وجهاز فيديو وتلفزيون. كان يقضي يوميا بعض الوقت للتسجيل. وكان سعيدا بهذه التقنية المتقدمة التي كانت توفر له وقتاً كثيراً. ومن المؤسف أن سطا على بيته في براغ لصوص سرقوا منه تلك الأجهزة إضافة إلى بعض التسجيلات المصورة. وقد ذهب الظن في حينها إلى أن السفارة العراقية كانت وراء الحادث، وبقى الأمر غامضا حتى الآن. لقد استمتعت ببعض تلك التسجيلات القيمة عندما كنت أزوره بين فترة وأخرى في داره في براغ.
حياة الجواهري أغزر وأعمق بكثير وأوسع أفقا وأرحب حركة من حيث الفكر والممارسة مما جاء ألينا عبر مذكراته التي نشرت في السنوات الأخيرة. ولدي القناعة الكاملة بأن الرجل قد اضطرته الأيام أن لا ينشر كل ما كتبه أو سجله على أشرطة الفيديو حينذاك أو انه نشر ما رأى إمكانية نشره في هذه الفترة العصيبة من تاريخ العراق والدول العربية. أتمنى أن يتم العثور على ما سرق من أفلام الفيديو المسجلة والمسروقة أولاً، وأن تنشر كتاباته وتسجيلاته بعد أن غادرنا الجواهري كما أراد لها أن تكون قبل نشر بعضها في جزئين.
مات الجواهري بعد عمر دام قرنا كاملا تقريباً، ولكنه سيبقى حيا في ضمير الشعب ووجدانه، وستبقى أشعاره شامخة كالجواهري ذاته. سيتحول قبره في الشام (السيدة زينب) إلى مزار للملايين من محبي شعره، إلى مزار لأولئك الذين غنى لهم في وادي الرافدين وفي جبال ووديان كُردستان، وفي كل بقعة من أرض العراق والبلاد العربية، وخاصة أولئك الذين قال يخاطبهم بحنان وألم مشحون بغضب واستفزاز منشط للكادحين:

نامي جياع الشعب نامي
حرستك آلهة الطعام
نامي وان لم تشبعي
من يقظة فمن المنام
نامي على زبد الوعود
يداف في عسل الكلام
نامي تزرك عرائس الـ
أحلام في جنح الظلام

وستكتب عنه بعد أن فارقنا وإلى الأبد الكثير والكثير من البحوث ورسائل الدكتوراه في العراق والعالم العربي، وأتمنى أن تفي تلك الدراسات هذا الشاعر العملاق وشاعر العراق والعرب الأكبر في القرن العشرين حقه.. عاش هذا القرن وتفاعل مع أحداثه وعواصفه وزلازله الكبيرة. وفي أربعينية الجواهري الكبير أنحنى إكراما واحتراما ومحبة لذكراه الخالدة.

قصيدة..وتعليق

من يدفع ثمن الغموض؟

صادق الصائغ

أغنية لطائر البرق

نم هادئاً
بأمان
سبع شجيرات ورد يحرسن نومك
وطائر يصفر لحناً سماوياً
نم هادئاً
دع النهاية مفتوحة
وأغلق الباب جيداً، وان قرعوا لا تفتح
القصيدة قرب رأسك وقدح الماء
وطائر البرق في نومك
هل رأيت أحداً في الحديقة؟
وان قرعوا لا تفتح
دع النهاية مفتوحة
وأغلق الباب جيداً، وان قرعوا لا تفتح
نم هادئاً
بأمان

رعد عبد القادر واحد من شعراء السبعينيات الذين حاولوا تمثيل تيارات الحداثة العراقية التي بلورتها الستينيات، لكن بمتطلبات اكثر طموحاً واكثر صرامة، رغبتهم في ان يكونوا مختلفين تظهر بطرائق تفكيرهم أو طرائق تصريفاتهم الشعرية، في حالتها المتألقة تنجح في تأسيس اكثر من مستوى واحد للتأويل وتنقل الوجود الطبيعي للاشياء الى مستويات –ذهنية- متخيلة والى معرفية تجمع المرئيات بلا مرئياتها، بحيث يفقد الأثر اثناء التداخل صورته الأولى، وكتابه مثل هذه تحتاج كما يقول امبرتو ايكو، ليس الى مبدع نموذجي فحسب بل وقارئ نموذجي مزود هو الآخر بقدرات كاشفة ومجسات يخضع الى مثل هذه الاسئلة لكي يتم الاعتراف به كمبدع يصنع شعراً أو قصيدة جديدة، لكن رعد الذي غادر مع آخرين، لغة الضواحي لا يأبه، كما يبدو، لمثل هذه الاسئلة، فثقافته ، وهي بلا شك، جادة وعميقة، لا تطرح ادعاء ولا مقاربة لمنظور شعري سابق، وهو كما احسب، يعرف عن وعي انه لا يسعى الى حضوة ما عند من يسألونه مثل هذه الاسئلة، لأن الآخرين ناهيك بالجمهور لم يكونوا مدعوين اصلاً لحضور حفلته المهزومة التي تفقد فيها اللغة القديمة زمانها التقليدي. ولا يعني هذا ان رعد في قصيدته يتقصد ان يكون مغلقاً أو معزولاً، انه، وهو المهزوم امام موته الاكيد يتجاوز وقتياً مع مجريات الفهم العام الذي يجمعه بالآخرين وبضرورات العيش في عالم مشترك. لكنه يفضل ان يرتاد نواحي غير منتظرة مؤملاً من وجهة نظره ان تستطيع قصديته استحضار نفسها بتصورات ودلالات مختلفة، دون اهتمام كبير في ان يكون كلامه مغلقاً.. أو غير واضح، وكما هو واضح في قصائده حسم علاقته بشعرية لا تخصه واختار طريق مغامرة ثمنها يدفعه الشاعر من حسابه الخاص.
يريد رعد عبد القادر استحضار ولعه النظري وثقافته العميقة داخل قصيدته، مفترضاً انها ذائبة داخل النص أو داخل شعريتها وداخل طبقاتها الايكولوجية، وانه، في هذه الحالة نظري اكثر من كونه غنائي، وبما انه يسعى ان يكون صارماً ومحايداً حد الجفاف، فانه في نفس الوقت سيصر على تكميم القول وجعله سرياً وخافتاً وبعيداً عن أية غنائية لا تخضع لمتطلباته الداخلية.
ان قصائد ديوان صقر فوق رأسه شمس تبذر في أرض لا وجود حرفياً لها، وليس لها مقياس خاص يحل اسرارها غير التأويل المستخلصة عن واقعها الموضوعي وتكاد القصائد كلها ومنها قصيدة اغنية لطائر البرق التي اخذتها، اعتقاداً مني بأنها اقرب قصائده الى الوضوح وكونها شأن اغلب قصائد رعد تتحدث عن حياته النازفة وعن كائنات مستها يد الموت، موت آمن لا يخالطه الجزع، بل يقوده من خضرة الى خضرة ومن لهب الى لهب.
ومن نهاية مفتوحة الى نهاية مفتوحة، حسب تعبير رعد نفسه.
وفي هذه القصيدة يراعي رعد خلافاً لكثير من قصائده الاخرى، قواعد التجانس المعتاد مبتعداً الى حد ما عن التقطع السينمائي الصارم الذي تمتاز به قصائده الاخرى، ومستسلماً لتدفق هادئ يبدأ من جملة "نم هادئاً" وينتهي بتصورات غير مفتوحة على حياة نازفة بشكل غير منظور.

رعد عبد القادر

نقدية تفصله عما هو سائد وموروث عن مفاهيم الشعر النظرية والتطبيقية.
وليس مستغربا ان تلاقي هذه المحاولات من زمام القواعد القديمة المتعارف عليها صداً قوياً ليس من قبل اناس تقليديين يجدون في هذا الميل تدنيساً للشعرية بل وعند مثقفين وشعراء ونقاد نموذجين كثر، بينهم فوزي كريم الذي لم يجد شرط الكتابة في النصوص التي اختارها، باعتبارها حسب رأيه، نموذجاً لغفلة الامبراطور الذي اقنع نفسه بأنه يلبس ثياباً وهو في الواقع، بلا ثياب!
لاشك ان صعوبة الكشف عن روابط النص الحديث، كما في حالة رعد عبد القادر وشعراء آخرين، ستطرح اسئلة يصعب الاجابة عليها اجابة حاسمة ومحددة فما هي الحدود القصوى التي يمكن ان يصلها النص دون ان يفقد خاصيته كشعر تتداخل فيه الصور والتصورات والمفاهيم وتبقى اشاراته التجريدية على علاقة بعالمنا الموضوعي، وهل ان ما نقرأه من نصوص شعرية حديثة تنتسب فعلاً الى الاصالة، أم هي مجرد وليدة لقاح اجنبي نظامه مفسد وادعاءاته تقطع الانفاس؟
قد يزعم البعض ان شعر رعد عبد القادر يجب ان

جحيم الحرية والتباس الحقيقة الذاتية

د. فاضل سوداني
مخرج وباحث مسرحي

ضمن التلامس الحضاري وبتأثير ديناميكية الوعي الأسطوري والملحمي للحضارات العراقية القديمة توجه المؤلف المسرحي المبدع عادل كاظم إلى الأساطير والملاحم التي تخلق التفاعل المعاصر من أجل منح المسرح ذلك القلق الذي لا يؤثر على وعي المشاهد فحسب بل يخلق في داخله تلك الدهشة الضرورية لتحقيق الوعي الذي يفرضه مسرح برشت والمسرح المعاصر.
لذلك فان عادل كاظم ومن أجل أن يحقق مشاكسته الفكرية إزاء ظواهر وجودنا المعاصر، أعني حرية الإنسان (كذات) وعلاقته بالنظام التسلطي والاستغلالي متمثلا بجبرية الدكتاتور المنفذ للإستغلال الطبقي، أومن أجل أن يخلق معادلة صيرورة (الذات) القلقة المتفانية في صراعها مع (الآخر) كتب مسرحيته الأولى الطوفان مستغلا الجو والخصائص الدرامية للملحمة جلجامش القديمة (وتعتبر المسرحية تفسيراً معاصراً للملحمة والتي أخرجها إبراهيم جلال بعدة رؤى إخراجية مختلفة وبوعي ملحمي بريشتي)
وبالرغم من أن المسرحية لم تخرج عن إطار الكتابة التقليدية المتقنة الصنع في بنائها، إلا أن المؤلف بحساسيته الدرامية والفلسفية ولغته التي تهوم في فضاءات الشعرية والجدل الفلسفي، إمتلك القدرة على صياغة الحدث والفعل الدرامي الذي يتأسس على التناقض الضدي في المفاهيم والأفكار أوحتى في الجملة الواحدة. لذا فإن لغته الدرامية في عموم مسرحياته تتجوهر وتتكثف بتعبيريتها ذات الطابع الفكري، إضافة إلى توهجها الشعري، فمن خلالها يعبر عن شيزوفرينية وتوهان الذات العراقية القلقة دائما والمستفزة بمشاكلها المعقدة التي هي جزء من مشاكل الإنسان العربي المعاصر.
فتحتل موضوعة علاقة الذات بغموض وتعقيد الظاهرات الاجتماعية والكونية والمشاكل المعقدة الأخرى، جوهر مؤلفات عادل كاظم، فهو دائما. وبعناد لامثيل له يضع بطله في زاوية ضيقة كأنها ثقب الابرة ويدفعه نحو المجهول بغية تحقيق عنفوان الذات البطولي الخادع أو علاقتها المحكومة بجحيمية الآخر، مستهدياً بقصوره في فهم واستيعاب العالم الضبابي المحيط به عندما يتجاسر للولوج فيه، بالرغم من رحابة عقله ووعيه. من هذا المنطلق فأن بطل عادل كاظم يبدو في الكثير من الأحيان قلقاً، مضطرباً، ملتاثاً، نتيجة لمحاولته الوصول إلى حصانة فكرية وهدوء نفسي أزاء العالم الأكثر جنوناً الذي يعيش فيه.
فالإنسان بالنسبة للمؤلف مختنق بمشاكل مادية وميتافيزيقية في الآن ذاته، تشغله دائما حد القلق الوجودي، بدون ان يجد مبرراً أو تفسيراً. لهذا فأنه يتخبط وسط شبكة الواقع المادي المعقد بمجانيته، أو الميتافيزيقي الغامض نتيجة لإلتباساته. وضمن هذا المفهوم فان أبطاله يلامسون جذر وحقيقة المشكلة، لكنهم لايحيطون بها كليا او يمتلكونها.
إن مشكلة الحرية هي مشكلة دائمة في طروحات المؤلف، وتعتبر موضوعته الأساسية فتشكل هوسه الابداعي. ولكن عندما يبدأ أبطاله التفكير العملي والتجريبي بحريتهم أو الثورة على الواقع السلبي كونه وجوداً ملتبساً، أو عندما يعمدون للامسة الظاهرات ذات الطابع الفلسفي، فأنهم ينكفئون على ذواتهم، فتصبح مفاهيمهم حول الحرية والثورة والعلاقة بالآخر وغيرها (والتي تشكل الوجود الذاتي للبطل) مقولات وظاهرات معقدة وخالية من مضامينها وجوهرها وخاصة في مجتمع محكوم مسبقا بالحرمان منها، وهذا يخلق التصادم بين البطل ومحيطه، بين الذات كوجود في صيرورة الفعل وبين الوجود الآخر (الواقع أو الذات الأخرى) وقد يؤدي هذا إلى السكونية والسلبية.
إن مثل هؤلاء الأبطال وعلى نطاق محاولة الخروج من أنانيتهم الفردية وسلبيتهم الوجودية يلجأون إلى قوة خارجية ليست ذاتية في تحقيق فعلهم الوجودي، ولهذا السبب فانهم دائما عاجزون عن فعل التحقق الذاتي فتضج أرواحهم بصراخ لا يسمعه أحد غيرهم : "العالم أعطى .. والعالم أخذ" كما فعل بطل مسرحيه "تموز يقرع الناقوس"
إن عجزهم في تحقيق ذواتهم بعيداً عن الآخر يدفعهم إلى الانتماء إلى المجتمع من جديد، لتحقيق فعلهم الحياتي للتكامل مع تلك النار المستعرة في دواخلهم أو ذلك الطموح للامسة تلك الجوهرة الجحيمية المسماة الحرية والتي تظهر للبطل كشهاب ناري تغريه بشعاعها اللاهب فيتبعها بإصرار لا مثيل له، ولكن بلا بصيرة أحيانا، وبدون التأكد من قدراته الذاتية في مواجهة مصيره التراجيدي، إنه مشتت ولاه بالرغم من أنه ينحدر إلى الأعماق السحيقة لجحيم الخراب، وإن بدا متشبثاً في كل شيء، لكنه يتراءى في غشاوة الوجود هامساً بفحيح مأساوي بعد أن يعي حجم خرابه الذاتي، كما فعل البطل في المسرحية السابقة :
(ها أنذا أحمل حملا ثقيلا / متوجه نحو القمة / ويجب ألا أسقط)
وهنا يبدأ تأثير برشت فكريا وملحميا وتغريبيا، حيث أن البطل يتخلى عن ذاتيته لينتمي إلى الآخر. وهذه هي الميزة التي اكتشفها إبراهيم جلال. المنتمي إلى برشت في معالجة المشاكل الاجتماعية على المسرح. في أبطال عادل كاظم وحاول دائما تطويرها من أجل أن يخلق العوض الشعبي المبني على إفهومة برشت في المتعة والتعليم وما يضفي عليها. فكر عادل كاظم المهوس بالأساطير والمقولات الفلسفية، وكذلك العقل المسرحي المفكر والرؤى الإخراجية لمفهوم ابراهيم جلال للمسرح المركب.
والجانب الاخر من روح وموقف بطل عادل كاظم الخارج من قدسية الأساطير والملاحم البابلية يلامس ذاتيته لكنه لا يستطيع تحقيقها إلا بالتخلي عن هذه الذاتية، عندها يصبح هشاً وقناعاً غير معبر، لأنه يجتاز منطقة الخطر وامتحان الذات اضطراراً، فينحدر إلى هوة الهامشية والتماهي، ليتحول إلى بطل بائس، متكيف مع خراب روحه فيصبح جزءاً من التاريخ الإستثنائي قياساً لدوره في تغير ذاته وواقعه. وعادل كاظم عندما يقوم باستغلال التراث البابلي، يحاول انتقاء تلك المقولات والأفكار التي لها علاقة بمشاكل عصرنا الراهنة ويبني عليها مفاهيمه المسرحية مما يضفي تفرداً لسمات ذلك المسرح الذي مازال يجهد ببنائه منذ الستينات من القرن الماضي.